التنوير

فى الفكر الإسلامى

obeikandl.com

obeikandl.com

التنوير فى الفكر الإسلامى .

عاشت أوربا فترة من الزمن تبلغ نحو ألف سنة – تبتدئ من سقوط الدولة الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م على يد الجرمان وتنتهى بسقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٣م على يد الأتراك – فى ظلام فكرى دامس ، عرفت فى التاريخ باسم" القرون الوسطى " . وبدهى أن هذا التحديد بالسنوات هو اصطلاح تاريخى فقط ، وإلا فإن الواقع يثبت أن بذور القرون الوسطى ظهرت فى الدولة الرومانية منذ القرن الأول المسيحى ، كما أن هذه القرون لم تنته بسقوط القسطنطينية. والقرون الوسطى غير " القرون المظلمة" ، وإن كان كثيرون يطابقون بينهما ، والمعول عليه الآن أن تُطْلَقَ صفة الظلام على السنين الخمسمائة الأولى ، أى من سنة ٤٧٦م إلى سنة ٩٧٦م ، لأن هذه الفترة كانت فى أوربا فترة الركود الفكرى .

استمر الانحطاط فى أوربا عبر القرون الوسطى ، وعمت الفاقة الناس ، فأقفلت المدارس ولم يعد هناك جمهور قارئ يعيش معه النساخون ، فندرت الكتب وزالت الطبقة المتوسطة . وازدادت الكارثة وتفاقمت فى ظل المسيحية ؛ لأنها كافحت المدارس القديمة ، وحاربت العلماء ، فانحصرت الثقافة عندئذ فى صوامع الرهبان ، وهؤلاء لم يقصدوا منها سوى غاية واحدة ، هى : خدمة الدين ، [1] لأنها تقيدت بالنصوص التى فى الكتب الموروثة دون مباشرة الطبيعة بتسليط العقل عليها واستخراج المعارف منها ، فسادت العقائد على المعارف والتليد على الطريف ، وطغت الثقافة الدينية على الثقافة المدنية .

كانت أوربا فى هذه القرون واقعة تحت ضغط كنيسة طاغية ، تتعقب المفكرين ، أينما كانوا . ولذا ظل الصراع بين العلم والدين ، أو بين المفكرين ورجال الدين قرونا عديدة ، أُطْفِئَتْ فيها الأنوار ، وأُخْرِسَت الألسن ، وسقطت فيها ضحايا من العلماء والمبدعين ، عَبَّدوا بدمائهم طريق الحرية الفكرية ، فكلما سقط شهيد للعلم أضيئ مصباح لتنوير العقول ، حتى انتصر الفكر ، فتقلصت سلطة الكنيسة واستقل العلم عن الدين .

---

[1] سلامة موسى : ما هى النهضة صـ ١٤

بدأ الإصلاح فى دائرة الكنيسة الجامعة "الكاثوليكية" منذ القرن الرابع عشر بهدف إحياء النظم الكنسية القديمة بما كانت عليه من زهد وورع . وقد دعت إلى هذا الإصلاح عوامل كثيرة ، أهمها : الاتجار فى الوظائف الدينية ، وانحراف بعض رجال الدين إلى أمور الدنيا وملذاتها ، وفساد الكهنوت الأعلى ، وجهل الكهنة بصفة عامة ، وقلة الاكتراث بشئون الدين والعقيدة .... وما يُعْرَف فى التاريخ باسم : " الإصلاح الدينى " إنما هو تلك الحركة التى قام بها " مارتن لوتر " فى القرن السادس عشر ، والتى بدأت على شكل حركة إصلاحية فى الكنيسة الجامعة "الكاثوليكية" ، ثم تحولت إلى حركة عقائدية ، عُرِفَت بـ " البروستانتية " (= الاحتجاجية) أو بـ " الإنجيلية " (نسبة إلى الإنجيل) ، ومن اسم هذه الحركة تتضح بدايتها ، ألا وهو الاجتجاج على الكنيسة ، فكانت بدايته عندما احتج "مارتن لوتر" على ظاهرة بيع صكوك الغفران ، ثم أعقب هذا هجوم علنى على العقائد والسلطة الكنسية . وأدى رفض "لوتر" الإذعان للبابا إلى الانفصال العلنى عن الكنيسة وظهور اتجاه عقدى آخر – مخالف لاتجاه عقيدة الكنيسة الكاثوليكية – يقوم أساسا على أن البرَّ يتم بالإيمان وحده فقط ، بدلاً من الاعتماد على الأسرار المقدسة ، أو وساطة الكنيسة ، ومن ثم فهى تعنى بتحديد مسئولية الفرد فى الحصول على خلاصه الذاتى .[٢]

واكب هذه الموجة الإصلاحية – أو سبقتها بقليل – موجتان أخريان استهدفتا تخليص الفكر من سلطان الكنيسة ، إحداهما نحت نحو التاريخ والنقد الدينى وفنون الإغريق والرومان ، وهى موجة الآداب التى كان يمثلها " أرازموس " الهولندى (١٤٦٦م-١٥٣٦م) . والموجة الثانية كانت تنحو نحو العلم ، وكان قوامها التجربة وكراهة التقليد ، أو قلة الإيمان بفائدته ، ثم الجرأة على الابتكار وبحث النظريات العلمية ، والنظر إلى "الحقائق العلمية" الموروثة بروح الشك ، والرغبة فى الإصلاح والاهتداء إلى سبل جديدة للوصول إلى استخدام الطبيعة . وكان يمثل هذه الموجة "دافينشى" الإيطالى (١٤٥٢-١٥١٩) .

كان لرجال هذه النهضة طرازان بارزان ، أحدهما : رجل الأدب ، والكتب ، والتاريخ ، والسمر ، والقصص ، والوعظ ، والنظر إلى الماضى . والآخر رجل العلم الذى لا ينظر إلا إلى

---

[٢]) محمد سعيد العشماوى صـ ١٧٣-١٧٤

المستقبل ، وهو دائب الاختراع . والعلم فى حاجة إلى الإثنين ، وإن كان أبناء المستقبل سيباركون رجل العلم أكثر مما يباركون رجل الأدب .

قاد الانطلاقة الفكرية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر العديد من المفكرين الذين أُطْلِق عليهم : " التنويريون " ، كما عُرِف عصرهم بـــ " عصر التنوير " ، كان منهم على سبيل المثال : " جون لوك " ، و " ديفيد هيوم " ، و "نيوتن " فى انجلترا . و " فولتير " ، و"الموسوعيون " فى فرنسا . و " ليسينج " ، و " كانت " فى ألمانيا .

فما هو مفهوم التنوير[٣]

التنوير لغة : وقت إسفار الصبح ، يقال : قد نَوَّرَ الصبحُ تنويراً . والتنوير : الإنارة ، والتنوير : الإسفار . واصطلاحاً : اسم يعبر عن الفكر الليبرالى البرجوازى ذى النزعة الإنسانية العقلية والعلمية والتجريبية ، كما يتضمن هذا الفكر نزعة مادية واضحة بعد إقصاء اللاهوت ، وذلك بإحلال الطبيعة والعقل بدلاً من الفكر الغيبى الثيولوجى والخرافى فى تفسيرظواهر العالم ووضع قوانينه .[٤]

ومن هنا نرى أن مفهوم التنوير الأوربى يعنى : التحرر من التعاليم الموروثة التى تم القبول بها على أساس سلطة ما ، كما يعنى : إعادة صياغة الحياة على أساس من النظر العقلى ، وإرادة

---

[٣]) التنوير : حركة فلسفية بدايتها موضع خلاف بين المؤرخين : " بول هزار " فى كتابه " أزمة الضمير الأوربى " (١٩٣٥) يرد التنوير إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، و " كريستوفر هل " فى كتابه " الأصول الثقافية للثورة الإنجليزية " (١٩٦٥) يرى أن أفكار التنوير فى انجلترا كانت ذائعة فى القرن السادس عشر . ومن هنا تبدو الصلة بين عصر النهضة وعصر التنوير . و " بيتر جراى " فى كتابه " التنوير " يرد التنوير إلى اليونانيين . ولا أدل على ذلك فى رأيه من قول " ديدرو " : إن طاليس (أول الطبيعيين الأقدمين) هو أول من أدخل المنهج العلمى فى الفلسفة ، وهو أول من استحق لقب " فيلسوف "، وكل من جاء بعده اتخذ من العقل ناقداً لذاته . ثم إن فلاسفة اليونان قد استنبطوا الأخلاق من طبيعة الإنسان ، وليس من طبيعة الله . وقال الأب " إيفون " : إن اليونانيين هم الذين اخترعوا الفلسفة النقدية التى تنكر السلطة ، واسترشدوا بلمعان البداهة وحدها فى البحث عن الحقيقة . ومهما يكن من أمر هذا التباين فالرأى الشائع والمألوف أن القرن الثامن عشر هو عصر التنوير ، وهو عصر من صنع الفلاسفة . [مراد وهبه صـــ ١٧-١٨]

[٤]) موسوعة المفاهيم الإسلامية : مادة : التنوير

العمل عن طريق العقل . وكان أول من استعمل هذا التعبير هو الفيلسوف الألمانى " كانت " ؛ إذ عبر به عن الحركة العقلية التى بدأت فى أوربا فى القرن السابع عشر ، وبلغت أوجها فى القرن الثامن عشر ، وتأثرت بها كل الشعوب التى اتصلت بأوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين . ويحدد "كانت " مفهوم هذا المصطلح بقوله : " إنه خروج الإنسان من مرحلة اللارشد التى تَسَبَّب هو فيها . واللارشد يعنى عجز الإنسان عن استخدام عقله دون معونة من غيره ... ومعنى ذلك استخدام الحرية فى جميع مجالات الحياة الإنسانية . "[٥]

كانت غاية العلوم والمعارف خدمة الدين ، الدين فقط ، وما عدا ذلك فهو عبث أو كفر . وإذن اتجهت النهضة فى ناحية من نواحيها إلى الاستقلال عن الدين ، حتى علم السياسة ظهر له من يدافع عنه فى شخص "ميكيافيللى" الذى كان يطلب لهذا العلم استقلالاً كى يبحث فى نزاهة ، فلا يخضع الباحث فيه للدين أو الأخلاق . وإذن يمكن أن نقول : إن أول واجب قام به الأدباء والعلماء فى بداية النهضة كان الاستقلال عن سلطة الدين .

والناحية الأخرى التى اتجهت إليها النهضة هى الخروج عن الرحم الفلسفى والمنطق الذهنى إلى التجربة . فقد كان المألوف عند العلماء فى القرون الوسطى أن يبحث العالم الموضوع الذى يتناول درسه بحثاً فلسفياً وكأنه يضارب بذهنه مضربة ، فهو يرجم بالفلسفة ويحاول أن يصل النتائج بالأسباب . ولكن رجال النهضة رأوا خطأ هذه الطريقة ، فقاموا يدعون إلى التجربة . فيجب ألا نؤمن بشىء حتى نجربه فى ظروف مختلفة ، وعلى أيدى أناس كثيرين . ومن هنا يمكن القول : إن النهضة كانت إلى حدما ، وفى تعبيرها الحديث ،" ثورة العلم على الفلسفة ، أو ثورة التجربة على التفكير المنطقى ".

نستطيع أن نقول : إن "فرنسيس بيكون " الإنجليزى قد وضع المنهج للتفكير العلمى بالإكبار من شأن التجربة . أما " ديكارت " الفرنسى (١٥٩٦م-١٦٥٠م) فقد وضع المنهج للتفكير الفلسفى بالإكبار من شأن الشك ، حتى لا نسلم بشىء إلا بعد أن نعالجه كما لو كان مسألة أو نظرية من نظريات " إقليدس " . فقواعد التفكير السليم عند ديكارت هى : لا اعتراف

---

[٥]) زقزوق ص ٨ نقلا عن : R. Eisler : Kant, P. ٥٠ Hildesheim ١٩٦٤

بصحة شيء ما لم أجده كذلك بلا تعجل أو استعراض .... هناك فـرق بين " بيكون " التجريبى وبين " ديكارت " التفكيرى ؛ لأن الرهان عند " ديكارت " عقلى ، ومهما قلنا فإن منهجه يُحَوِّط هذه البراهين بما يمنع الخطأ . ولكن البرهان عند " بيكون " تجريبى أكثر مما هو نظرى . وهذا هو منهج المدرسة الإنجليزية على وجه عام ؛ إذ هى مدرسة العلم ، وليست مدرسة الفلسفة . فقد حدث أن " جينر " الطبيب الذى اهتدى إلى لقاح الجدرى أرسل إلى " هينتر " خطابا يقول فيه : " أنا أرى أن .... " ، فرد عليه " هينتر بقوله : " لا ترى ، ولكن جَرِّب " . والدعوة إلى التجريب هى دعوة إلى الاعتماد على العقل الإنسانى والتمسك به ، بحيث يتحرر من كل شكل من أشكال السلطة المقيدة لحرية هذا العقل بما فى ذلك سلطة الدين نفسه ، وليس فقط السلطة الكنسية المتمثلة فى اللاهوتيين .

ربما كانت الحرية من أكثر المصطلحات التصاقاً بحياة الإنسان ومصيره ، وربما كان هذا هو السبب ، الذى من أجله يتعرض مفهوم الحرية للكثير من عمليات التشويه والتلبيس والتلاعب ... ولقد ظلت الحرية على مدار التاريخ عرضة لعمليات " تحجيم " ماكرة يراد منها أن تخدم مصالح بعض أصحاب القرار الذين لا يؤمنون أصلاً بالحرية إلا بمقدار ما تمنحهم هذه الحرية من " سلطات " تضاف إلى رصيدهم من السلطة والطغيان والجبروت ، كما كان الحال بالنسبة للكنيسة فى أوربا إبَّان العصور الوسطى حيث ساد الظلام ، وكان ظلاماً حالكاً ؛ لأن الثقافة كانت وقفاً على الرهبان يبحثون جغرافية العالم الآخر وهم لا يدرون جغرافية هذا العالم ، ويشرحون للناس كيف يجب أن يموتوا بدلاً من أن يشرحوا لهم كيف يجب أن يعيشوا ، ويخوضون فى مشكلات " ذهنية " أولى بها أن يبحثها الأطفال وأن يضحكوا منها ، مثل قيمة الرقم ٧ فى الدنيا والآخرة ، ومثل عدد الملائكة الذين يمكنهم أن يقفوا على إبرة ، ومثل مكان الروح من الجسد .[٦]

هل مرَّ المجتمع الإسلامى بمثل ما مرت به المجتمعات الأوربية فى القرون الوسطى ؟ أىْ حَجْرٌ على العقل ، وتكبيل لحرية الرأى ؟..... لا ؛ فالإسلام دعا إلى حرية الفكر ، بل فرضها على المؤمنين به تكليفاً ، وألزمهم بها تجاه غيرهم ديناً وعقيدة وسلوكاً ، فقد بدأ أولاً بتعليم

---

[٦] سلامة موسى : ما هى النهضة ص ٥

الرسول ﷺ هذا المبدأ الجديد على الإنسانية ، حتى لا يدفعه حرصه على الإيمان إلى أن يأخذ الناس قسراً فيكرههم على اعتناق الإسلام ، وهو ما يأباه الإسلام نصاً وروحاً ، لأنه قرر أن العقيدة لا تكون عقيدة إلا إذا صدرت عن اعتقاد ، و الإيمان لا يكون إيماناً إلا إذا كان منبعه القلب والضمير ، فمن ينطق بكلمة الإسلام بالإكراه ، دون أن يعتقد ذلك عن اقتناع لا يكون هذا إسلاماً ، وإنما يعده الإسلام نفاقاً، والنفاق فى الإسلام من الكفر الصريح .

كذلك إذا لم يكن الإيمان عن رضا خالص ، وطمأنينة صادقة ، يكون نفاقاً ؛ فقد بين القرآن الكريم لمحمد ﷺ أن المسلم لا يكون إسلامه صحيحاً إلا إذا انتفى عنصر الإكراه فى اعتناقه هذا الدين ، ولهذا لم يتدخل الله فى حمل الناس على الإسلام ، فينبغى عليك – يا محمد – أيضاً ألا تكره أحداً على الدخـــول فى الإسلام ، يقـــول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩] ، ويقول : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

فإقرار الحرية فى الاعتقاد يُشْعِر الناس بأنهم مسئولون مسئولية كاملة فى اختيارهم عقيدتهم ، إذ لا يتدخل أحد فى حملهم بالإكراه على اعتناق هذه العقيدة أو تلك ، ولذلك فتبعة الاختيار ملقاة على عاتقهم هم ، إذ ليس للرسل عليهم السلام إلا أن يبلغوهم بما أنزل الله ، وهم أحرار بعد أن سمعوا وحى الله فيما يختارون ، فمهمة الرسول البلاغ فقط ، يقول تعالى :﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، ويقول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل :٣٥] ، ويقول : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المائدة : ٩٢]

بل إن القرآن الكريم دعا الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم ، وارتباطاتهم الكونية عن طريق " النظر الحسى " إلى ما حولهم ، ابتداءً من مواقع أقدامهم ، وانتهاءً بآفاق النفس والكون ، وأعطى للحواس مسئوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم فى مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب ، فقال له : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، كما أمره أن يمعن النظر فيما حوله .....إلى طعامه : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [عبس : ٢٤-٣١] ، وإلى خلقه : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ [الطارق : ٥] ، وإلى الملكوت : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] ، وإلى التاريخ وحركة الإنسان فى الأرض : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ [غافر : ٨٢] ، وإلى خلائق الله : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية : ١٧] ، وإلى آياته المنبثة فى كل مكان : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة : ٧٥] ، وإلى النواميس الاجتماعية : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴿٢١﴾ ﴾ [الإسراء : ٢١] ، وإلى الطبيعة وهى تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله ومقدرة : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَآ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم : ٥٠] ، وإلى الثمار وهى تتدلى من غصون الأشجار : ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام : ٩٩] ، وإلى الحياة كيف بدأت ، وكيف نمت وارتقت : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] ودعاه أن يحرك " سمعه " باتجاه الأصوات ، لكى يعرف ويميز ، فيأخذ أو يرفض ، فمن الاختيار ينبعث الإيمان : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنفال : ٢١]

وعى المسلمون هذا الدرس وطبقوه منذ فجر الإسلام ؛ فعمر ﷺ كان أول عقل ممحص مستقل فى الإسلام ، إذ كان له من الشجاعة الأدبية ما جعله يقول فى اللحظات الأخيرة من حياة الرسول ﷺ : " حسبنا كتاب الله " [٧]

وانتقل الإسلام خطوة أخرى ، وسألهم أن يحركوا " بصائرهم " ، تلك التى تستقبل فى كل لحظة مدركات حسية ، سمعية ، أو بصرية ، ولمسية ... لاحصر لها ، ومن ثم تتحمل البصيرة مسئوليتها فى تنسيق هذه المدركات ، وتمحيصها ، وموازنتها ، وفرزها ، من أجل الوصول إلى " الحق " الذى تقوم عليه وحده نواميس الكون والخليقة : ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنفال : ١٠٤]

إن العقل والحواس جميعاً مسئولة ، لا تنفرد إحداها عن الأخرى فى تحمل تبعة البحث والتمحيص والاختيار .... والإنسان مبتلى بهذه المسئولية لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام :

---

[٧] حدثنا يحيى بن سليمان قال : حدثنى ابن وهب قال: أخبرنى يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: لما اشتد بالنبى ﷺ وجعه قال : " ائتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده " . قال عمر : إن النبى ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا ، فاختلفوا وكثر اللغط . قال : " قوموا عنى ، ولا ينبغى عندى التنازع " . فخرج ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه . [البخارى – كتاب العلم ، باب ٣٩]

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ " إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا " [الإنسان : ٢]

وعليه ، فلا يتصورنّ أحد أن الإسلام ما جاء إلا لكى يؤكد فى موقفه من العمل الحضارى على الجوانب الأخلاقية والروحية فحسب ... إننا بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة فى قلب العالم والطبيعة ، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس فى أعماق التربة ، وفى صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات .... إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف ، بين التلقى عن الله والتوغل قدماً فى مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها .... بين تحقيق مستوى روحى عالٍ للإنسان على الأرض وبين تسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادى .. ولم يفصل الإسلام — يوماً — بين هذا وذاك . [٨] وبناء على حث الإسلام على استخدام العقل لاتوجد حقيقة دينية فيه مخالفة للحقائق العلمية ، مما جعله صالحاً لكل إنسان على وجه الأرض ، لأنه يخاطب العقل الذى يشترك فيه جميع البشر ، فليس فى القرآن الكريم حقائق تختص بجنس دون آخر ، أو تناسب قوماً دون غيرهم من أقوام الأرض ، فالكل مشترك فى الأداة التى يتوجه إليها القرآن الكريم بأوامر الله ونواهيه ، ألا وهى : **العقل** . تدور حياة الإنسان كلها على أساس الفكر ، إذ لايوجد إنسان سوىّ بدون فكر ، لأن الفكر عصب حياة الإنسان ومدار نشاطه ، ولهذا منح الله للإنسان حرية فى الفكر لم يمنحها دين من الأديان ، ولا استطاع مذهب من المذاهب الإنسانية أن يصل إليها ؛ إذ لم يجبره على اعتناق عقيدة التوحيد ، كما لم يقبل منه التقليد فيها ، بل ذم التقليد الذى يبعد الإنسان عن ممارسة مابه تتحقق ذاته ، ألا وهو الاعتقاد بعد تفكير واقتناع بما يعرض عليه من قضايا . فإذا كان الإسلام قد ذم التقليد فيما يتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان ، ومجال التفكير فيه محدود ، إذ لا ينبغى أن يخرج عن الإطار العام للعقيدة ، فمن با ب أولى أن يُذَم التقليد ، أو التحجر على صيغ موروثة ، فيما

---

[٨]) عماد الدين خليل صـ ٦١

يتعلق بشئون الحياة الدنيوية ، السريعة التغيير والتطور ، فهو يدفع المسلم دفعا إلى البحث فى الظواهر الكونية المحيطة به سعياً وراء تحسين مستوى الحياة فى المجتمعات الإسلامية .

فهم المسلمون الأوائل هذه الروح الإسلامية ، وتشبعت روحهم بها ، فقادوا حركة عقلية فى صدر الإسلام ، صالت وجالت فى جميع ميادين الحياة ، فنهلت من كل ما حولها ما ينفعها فى تكوين شخصيتها المتميزة ، وأعطت لمن حولها ما أفاء الله به عليها من معارف وعلوم ؛ فلم تتقوقع داخل نفسها ، بل انفتحت على ما وراء حدودها الجغرافية والفكرية ، ولم تتحجر أمام ما واجهها من أفكار ونظريات ، بل تعاملت معها بأسلوب علمى بناء ، أخذت منها ما يصلح للمجتمع الإنسانى ، وعدلت ما يمكن تعديله حتى يستقيم مع روحها وتكوينها ، وزادت عليه من خبرتها وتجاربها ما يدفع عجلة الحياة الإنسانية إلى التقدم والرقى ، فشيدت بذلك حضارة إسلامية ، وضحت معالمها فى جميع أنشطة الحياة الإنسانية ، وتمركزت مظاهرها فى كل أرجاء المعمورة ، وكثر عطاؤها لكل الشعوب ، فنهل منها الراغبون ، فكانت بذلك أساساً لكل النهضات التى جاءت بعد الإسلام ، وبذرة لكل ثمار الحضارات الإنسانية التى ظهرت فى القرون التالية .

تأثر المسلمون بهذا التوجيه الربانى فى القرآن الكريم ، فأعملوا الفكر فيما حولهم ، ولم تقبل عقولهم كل مايسمعونه أو يرونه دون تمحيص وبحث ، إذ لم يكن لديهم محرمات على العقل والفكر ، فلم يقدسوا رأياً مهما كان صاحبه حتى ولو كان من أصحاب رسول الله ﷺ ؛ فقد كان عمر وعلى وعثمان وابن عباس وغيرهم من الصحابة يتصفحون على إخوانهم فى الصحبة ، ويشكون فى بعض ما يروونه عن الرسول ويردونه على أصحابه ، كما ردت عائشة حديث عمر وابن عمر : " إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه " ، فقالت إنكم لتحدثون عنه غير كاذبين ، ولكن السمع يخطئ ، والله ما حدث رسول الله أن يعذب المؤمن ببكاء أهله عليه ! وقالت : حسبكم القرآن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر : ١٨] ، كما ردت حديث رؤية النبى ﷺ لربه ليلة الإسراء الذى رواه الشيخان عن عامر بن مسروق الذى قال لعائشة : يا أمتاه ! هل رآى محمد ربه ؟ ، فقالت : لقد وقف شعرى مما قلت ! أين أنت من ثلاث ، من حدثكم بها فقد كذب : من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى : ٥١] ، ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان : ٣٤] ، ومن حدثك أنه كتم شيئا فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴿٦٧﴾ ﴾[٩] [المائدة : ٦٧]

ولم يكن التحرر الفكرى قاصراً على عصر الصحابة ، بل امتد عبر العصور الإسلامية المختلفة ، فقد سمعنا أبا حنيفة يقول : " هذا أحسن ما وصلنا إليه ، فمن رأى خيرا منه فليتبعه " ، وعندما سأله بعض الفقهاء : أهذا الذى انتهيت إليه هو الحق الذى لا شك فيه ؟ رد عليه بقوله : " لا أدرى ! لعله الباطل الذى لا شك فيه " ، ولما رأى تلميذه أبا يوسف يكتب ما يقول ، قال له " ويحك يا يعقوب ! أتكتب كل ما أقول ؟ إنى قد أرى رأياً اليوم ، وأخالفه غداً ، وقد أرى الرأى غداً ، وأخالفه بعدغد" [١٠]

فآراء العلماء فى الإسلام نتاج بشرى ، يجوز نقدها وردها ؛ لأنها ليست مقدسة كما هو الحال بالنسبة لآباء الكنيسة ، "فالأصل فى الدين هو ما جاء به النبى من قرآن ، ومن أفعاله وأقواله فيما يتصل بالدين أو الشريعة . غير أن كلاً من القرآن والسنة القولية نص . والنص — فى غير حياة النبى — لا يتكلم بنفسه ، ولا يشرع بذاته ، ولا يفض معناه ، ولا يقطع فيما بداخله ، ومن ثم فُسِّر القرآن بالسنة ، ثم فُسِّرا معاً من جانب القلة التى استطاعت أن تندب نفسها للتفسير ، وأن تتأهب له بما يقتضيه ، وأن تتفرغ للجهد الذى يستلزمه . ومن الأحاديث المرجوح بعضها ، وتفسير المفسرين بما يداخله من اختلاف مذهب كلٌ ، واختلاف ثقافته

---

[٩]) ونص الحديث كما ورد فى البخارى — التوحيد / باب ٤ (حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن إسماعيل عن الشعبى عن مسروق عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : من حدثك أن محمداﷺ رآى ربه فقد كذب وهو يقول " لا تدركه الأبصار " ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب ، وهو يقول لا يعلم الغيب إلا الله)

[١٠]) أبو زهرة صـ ٣٠١-٣٩٢

ورأيه ، وآراء الفقهاء والأئمة فى المسائل التى أبدوا فيها الرأى .. من كل ذلك تكوَّن فكر دينى ، ليس هو الدين ، وإنما هو فكر يدور على مدار الدين ، ويلف على محوره ، ويجرى على منواله . ولا يمكن لهذا الفكر بداهة أن يكون نقياً نقاء الدين طالما كان المحيط الذى تَصُبُّ فيه اختلاف البيئات ، واضطرابات المذاهب ، واجتهادات التفسير ، ومعتقدات العامة ، وأساطير الشعوب . ومن جانب آخر ، فإنه يكون من المستحيل أن يكون هذا الفكر صائباً دائماً ، فهو يحتمل الصواب والخطأ بشأن أى رأى ، (كما قال الإمام الشافعى: رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب). وفى عبارة واحدة يمكن أن يفرق بين الدين والفكر الدينى بأن الدين هو مجموعة المبادئ التى يبشر بها النبى أو الرسول ، والفكر الدينى هو الأسلوب التاريخى لفهم هذه المبادئ وتطبيقها . فكل فهم للنص الدينى ، وكل تفسير له — بعد حياته ﷺ — هو من قبيل الفكر الدينى ، لذلك فإن هذا الفهم أو التفسير قد يـــوافق الدين وقد يخالفه . " [11] ومن ثم فهو ليس مبرّءا عن الخطأ مهما كان قائله ، ولذا يجوز للعقل أن ينقـــده لانتفاء صفـــة القداسة عنه .

ولهذا رأينا كثيرا من العلماء والباحثين المسلمين يستخدمون العقل فى فهم وشرح وتأويل المسائل الدينية ، سواء كانت تتعلق بالعقيدة ، أو تتصل بالعبادات ، أو الأخلاق . ومن أشهر هؤلاء العلماء ابن رشد الذى مَثّل الاتجاه التنويرى فى الفكر الإسلامى ، وبتعبير أدق يعبر عن الحرية الفكرية التى سادت فى المجتمع الإسلامى ؛ فهو فيلسوف تنويرى — إن صح هذا التعبير ، أو مجدد فى الفكر الإسلامى – على المستويين : العقلى والدينى على السواء ، كما يتضح لنا أن التنوير الرشدى يختلف فى أهدافه ووسائله عن التنوير الأوربى فى القرن الثامن عشر ، نظراً لاختلاف الظروف والملابسات التى سادت كلاً من المجتمع الأوربى والمجتمـــع الإسلامى الذى عاش فيه ابن رشد ، ومن هنا اتخذ التنوير الأوربى طريق العقل مبتعداً عن الدين ، فى حين انصهر الدين والعقل فى بوتقة التنوير الرشدى فى تركيبة فريدة ، وفى تآخٍ منقطع النظير ، وذلك لأن العقيدة الإسلامية رفعت من شأن العقل ، الأمر الذى ساعد ابن رشد على اتخاذ هذا الموقف . فللإسلام دور حاسم فى مجال تحرير الفكر من أغلاله وقيوده ، عبر عنه الشيخ محمد عبده فى

---

[11]) العشماوى : صـــ ٧٨-٧٩

" رسالة التوحيد " بقوله : " أطلق (الإسلام) سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان قد استعبده ، ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته " وهكذا " تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما ، وهما : استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت الإنسانية " ويقول : " تآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل " . وشدد على ضرورة تحرير الفكر من أغلال التقليد ، وبين أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا معلياً لعقـــول على عقول . فالسابق واللاحق يستويان فى التمييز والفطرة ، وهناك إمكانات متوفرة أمام اللاحق لم تكن متاحة لمن سبقه : فاللاحق له من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . [١٢]

وقد ظل الشيخ محمد عبده طول حياته يحارب التقليد ويدعو إلى النقد ويحث عليه بوصفـــه أداة لتمحيص الآراء ، ومعرفته وجه الحق فى الأفكار ، عبر عن ذلك بقوله : " ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين ، الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الاختلاف . والأمر الثانى : إصلاح أساليب اللغة العربية .... كما يؤكد على أن الإسلام لا يعول فى الدعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده إلا على : تنبيه العقل البشرى وتوجيهه إلى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح ، وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سببها الذى سنته له الفطرة بدون تقييد . [١٣] فالمهمة الملقاة على عاتق المسلم العصرى مهمة ضخمة ؛ إذ عليه أن يفكر تفكيراً جذرياً فى نظام الإسلام كله دون أن يقطع ما بينه وبين الماضى قطعاً تاماً ؛ إذ من الجلى الواضح أن كتاب الإسلام المقدس ، بما له من هذه النظرة ، لا يمكن أن يكون خصماً لفكرة التطور ، على أنه ينبغى ألا ننسى أن الوجود ليس تغيراً صرفاً فحسب ، ولكنه ينطوى أيضاً على عناصر تنزع إلى الإبقاء على القديم . فالإنسان فى الوقت الذى يستمتع فيه بنشاط الخلق ، ويركز جهوده باستمرار فى كشف مسالك للحياة جديدة ، يحس بالقلق عندما ينكشف له ما فى ذات نفسه ، ولا مفر له فى خطوة إلى الأمام من أن يرجع

---

[١٢]) رسالة التوحيد ١٥٤

[١٣]) الإسلام والنصرانية ٤٦

البصر إلى ماضيه ، وهو يواجه نماءه الروحى فى شيء من الخوف . وروح الإنسان يعوقها فى سيرها قُدُمًا قُوًى يظهر أنها تعمل فى الاتجاه المضاد ، وما هذا إلا ضرب من القول بأن الحياة تتحرك وهى تحمل على عاتقها أثقال ماضيها . وأنه لى أى تغيير اجتماعى لا يمكن أن يغيب عن النظر التمسك بالقديم من قيمة وعمل .... فليس فى استطاعة أمة أن تتنكر لما ضيها تنكراً تاماً ، لأن الماضى هو الذى كيَّف شخصيتها الحاضرة .... كما أن الجمود على القديم ضار فى الدين ، كما هو ضار فى أى ناحية أخرى من نواحى النشاط الإنسانى ، فهو يقضى على حرية الذات المبدعة ، ويسد المنافذ الجديدة للإقدام الروحانى ؛ إذ أن مما لاشك فيه أن الله خلق الكون ، وجعل الحركة مبعث الحياة فيه ، فلو توقفت هذه الحرك لانعدمت الحياة كلية ، ومن لوازمها التغير الدائم ، إذ لا يستمر شيء على وجه الأرض على حالة واحدة فى لحظتين ، بل هو فى تفاعل مستمر وتغيير مطرد ، ولهذا نرى المجتمعات التى لا تدرك هذا القانون الإلهى يصيبها الشلل عندما تبطئ حركتها ، أو تتجاهل حتمية الحركة التى هى أساس التطور والتقدم ، ومنبع الرقى وبناء الحضارات .

ولما كان هذا المبدأ هو أساس التقدم المطرد ، فإن من المحتم ألا يبقى مظهر من مظاهر الحياة ثابتاً ، وإلا كان عائقاً يعوق سير الحياة فى مجر ها الطبيعى ، لذا كان لابد للإنسان أن يغير فى أسلوب حياته كى يتلاءم مع سنة التطور ، ويُعدِّل فى قوانينه لتنسجم مع صور الحياة المتجددة ، وتلبى احتياجات المجتمع ، التى تنشأ عن التفاعلات المستمرة فى الظواهر الاجتماعية ، فإن تقاعس أبناء الأمة عن القيام بهذا العمل ، أو اعتقدوا أن ما خلفه الأجداد لهم أمر لا ينبغى تغييره ، لأنه من الأمور المقدسة التى لا يجوز محوها أو الاستغناء عنها أو تعديلها ، فقد حكموا على أنفسهم بالجمود ، وضربوا بينهم وبين التقدم سياجاً يحول بينهم وبين مشاركتهم فى بناء الحضارة العالمية .

ولكن لا ينبغى أن يفهم المرء من هذا القانون الكونى أن كل شيء فى حياة المجتمع فى حالة تغير وتجدد مستمر ، لأن ذلك يؤدى إلى الاضطراب وعدم الاستقرار ، فللنظم والقوانين المتغيرة جوانب ثابتة لا تتغير حتى يكون للحياة استقرارها . كما أن لحياة الناس وسلوكهم الاجتماعى أُسساً لا تتغير ، ومبادئ مستقرة لا تتبدل ، إذ لو خلت الحياة من عناصر ثابتة ومبادئ مستقرة

لأصيب المجتمع بحمى التغيير السريع والتبديل المستمر الذى لا يهدأ ولا يستقر ، فترتبك الحياة وتضطرب، وتختلط الأمور وتتشابك ، فتقع العقول فى حيرة ، وتصاب الأمة بالشلل ، إذ تعجز عن تحديد مفاهيم ما يدور حولها ؛ فما كان بالأمس صالحاً ، أصبح اليوم طالحاً ، وما تمسكت به فى الماضى القريب لاعتقادها أنه مناسب لحياتها ، تستنكره اليوم وتنظر إليه بعين الاستهزاء والسخرية .

ولهذا وضع الله تشريعات تضمنت قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور ، وتتمشى مع ما ينبغى أن تكون عليه الحياة من الاستقرار ، وتتفق مع الظواهر التى تشترك فيها جميع الأجناس . أما التفاصيل والتفريعات فقد تركها الله لعقل الإنسان يستخلصها حسب عصره وبيئته ، ويستنتجها طبقاً لمتطلبات ظروفه المحيطة به ، بحيث يلبى احتياجات العصر ، وفى الوقت نفسه لا تخرج عن الخط الرئيسى الذى رسمه الإسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع ، أو كدستور يتخذه الناس قاعدة أصلية للتشريع ، ينبثق عنها كل ما يقررونه من قوانين ، وما يرسمونه لأنفسهم من لوائح ونظم .[١٤]

ومن هنا تتبين لنا — بعد هذا العرض — الحقائق التالية :

- كفل الإسلام للإنسان حرية الرأى ، حتى ولو أدى ذلك إلى عدم اعتناقه الإسلام .
- دعا الإسلام الإنسان إلى التفكير فى نفسه وفيما حوله من مظاهر الحياة المتعددة ، وآفاق الكون المحيطة به .
- هناك فرق بين الدين والفكر الدينى ؛ فالدين هو النصوص المقدسة (القرآن الكريم ، والسنة العملية ، والحديث المتواتر) ، والفكر الدينى هو ماسطرته عقول المسلمين — عبر التاريخ الإسلامى ــ حول هذين النصين .
- لاقداسة فى الإسلام إلا للنص القرآنى ، وما أجمعت الأمة على صحته من أحاديث رسول الله ﷺ ، وما عدا ذلك فيحتمل الخطأ والصواب ، مهما كان صاحبه .

---

[١٤]) انظر شامة صـــ ١١ وما بعدها

- ليس فى الإسلام مرجعية كهنوتية ، تحتكر الحق ، وتُلْزِم الآخرين به ، وإنما هى آراء مجتهدين ، يجوز ردها ، ومخالفتها لمن يتضح له خطؤها ؛ إذ لم يُعْطِ الإسلام أحداً — مهما كان مركزه — الوصاية فى الفكر على الآخرين ، كما كان وضع البابا فى المجتمع المسيحى قبل عصر التنوير . كما أنه لم يبرئ أحداً من الخطأ — أو بالتعبير الاصطلاحى : لم يعصم أحداً من الخطأ — بحيث يفرض رأيه على المجتمع ، بحجة أنه لا يجوز نقده ، لأن النقد لا يوجه إلا لمن يخطئ ، وما دام خطؤه مستحيلاً ، فنقده جريمة يعاقب عليها من يتجرأ على مخالفته كما هو وضع البابا بالنسبة للمسيحيين . فإذا انتفت الوصاية الفكرية فى الإسلام ، فإنه يحق لكل فرد فى ظله أن يفكر بحرية ، ويعبر عن تفكيره دون حجر عليه ، ومن غير قيود تُفْرَض على حرية التعبير عن رأيه . وكان لمبدأ انتفاء العصمة عن الإنسان أثر فى اتساع حركة النقد ، إذ أجاز نقد أى فكر مهما كان مركز صاحبه ، فليس هناك من يتمتع بحصانة ضد الآراء المخالفة له ، حتى وإن علا شأنه فى المناصب الروحية ، فتقلد أعلى مناصبها الرسمية ، أو تربع فى مقام من يعتقد العامة فى قداسته لقربه — حسب ما يعتقدون — من صاحب الرسالة نسباً ، أو علماً ، أو تقوى وصلاحاً .

مارس المسلمون حرية الرأى عبر التاريخ ، ابتداءً من انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى يومنا هذا ، مما نتج عنه تعدد الأحكام فى المسألة الواحدة ما بين مُعَسِّر ومُيَسِّر ، ومتشدد ومُرَخِّص ، وهذه هى طبيعة الفكر الإنسانى فى كل زمان ومكان . ولهذا لا ينبغى للمرء أن يتزعج ، إذا وجد تياراً متشدداً يرفع صوته مدعياً أن رأيه هو الصحيح ، بل نحترم هذا الرأى وندعوا أصحابه إلى احترام رأى المخالفين لهم ، وعدم فرض رأيهم بالقوة ، لأن الإسلام يرفض الإكراه مطلقاً . وما ازدهرت الحضارة الإسلامية إلا فى ظل تعدد الآراء ، وتباين الاتجاهات الفكرية فى جميع المجالات .

فأى تنوير هذا الذى يطالب به بعض المفكرين ؟ فلم يخيم ظلام فكرى على المجتمع الإسلامى بنص مقدس ، و لم تُفْرَض وصاية على المفكرين من أى جهة بتفويض دينى . ولهذا لا مكان لمثل هذه الدعوة فى المجتمعات الإسلامية .

قد يقول قائل : إن فى المجتمع الإسلامى من يرفض التجديد ويصر على التمسك بالقديم مهما كانت قيمته وأثره فى الحياة ، فهم يرون أن الجديد لا وزن له ، فلا يجوز قبوله ، ولا جذور له تثبت وجوده فى المجتمع ، وتحمل الإنسان على التعامل معه ، فهو " بدعة " تُضِلّ من يتبعها ، فتقوده إلى وادٍ سحيق ، يفقد فيه هويته ، وتذوب ملامحه فى خضم الصور والأشكال الجديدة ، فتتلاشى ذاته ، ويتفكك كيانه بصيرورته تابعاً من توابع هذا الوافد الجديد .

أليس هذا رفضاً لاستعمال العقل ، وحجراً على حرية الإنسان فى اختيار مايراه صالحاً لحياته ؟

لا شك أن هناك تياراً فكرياً بين المهتمين بالدراسات الإسلامية يسلك سلوكاً بعيداً عن الروح الإسلامية ؛ فهو :

- يهتم اهتماماً زائداً بالأمور الفرعية ، لدرجة الطغيان على الأساسيات ، بما يعجزنا عن الوصول إلى الأهداف فى مجال الحياة المختلفة .
- ويركز على اجتهادات فردية ، فيرفع درجتها إلى مقام النص المنزل الذى يترتب على إنكاره كفر من أنكره .
- ويدخل فى صراع مع المخالفين ، يصل أحيانا إلى درجة التقاتل بين الجماعات الدينية ، لمجرد الاختلاف فى تفسير النصوص وتأويلها .
- ويعلن الحرب سافرة على مؤسسات السلطة التنفيذية ، ومحاربة كل من تتفق آراؤه معها من المفكرين ... حتى ولو كان هذا الاتفاق مجرداً من الهوى ، وبعيداً عن التواطؤ ، ومبرأً من تبادل المنافع ومقايضة المصالح بين الطرفين .
- ويتمسك بمظاهر وسلوكيات لا تعبر عن روح الإسلام ، بل تشوهها وتمسخها، فضلا عن أنها توحى بقُطْرية الإسلام ، وتنفى عالميته ، مثل : الادعاء بأن الزى

الإسلامى ، هو الثوب الأبيض والنعال ، ورفض كل ما عداه من الأزياء العالمية رفضاً يصل فى بعض الأحيان إلى التحريم .

- ويرى حصر الدراسة والتعليم فى مجال العلوم الدينية ، ورفض ما عداها من علوم ومعارف .... الخ

لانريد أن نخوض فى أسباب ظهور هذا التيار ، وإنما نريد أن نوضح بعض الأمور :

ليس غريبا على أى مجتمع أن يظهر فيه المتشددون ، وإنما الغريب أن يسيطر هذا الاتجاه على عقول الشباب ، وتُستَخدَم القوة لفرضه على الآخرين . فتعدد الآراء ، وامتدادها بين المتشددين والمتساهلين بدرجات متفاوتة سمة أساسية من سمات المجتمعات الإنسانية . أما فرض الآراء على الآخرين بالقوة ، فهو الشاذ والمستهجن ، ولا يظهر فى المجتمع إلا فى فترات الانحطاط الفكرى .

لن يكون هناك استقرار فى أى مجال من مجالات الحياة إلا بتأمين حرية التعبير ... ولن يكون هناك تقدم على جميع المستويات إلا إذا استخدمت حرية التعبير استخداماً حسناً ، بعيداً عن المزايدات والمهاترات ، وإلا إذا التزم كل بأمانة الكلمة ، وحرص على ممارسة الصراع الفكرى بأسلوب حضارى ، بعيداً عن الأنانية البدائية ، ومترهاً عن كل ما يعوق حركة البناء ، ومسيرة التقدم الحضارى . وعليه فليس من الحكمة كبت هذا الاتجاه ، أو تعقبه بالإجراءات السلطوية ـــ لأن فى هذا حجراً على العقل ، ومصادرة لحرية الرأى- وإنما بترشيده وتهذيبه ، حتى يعيش جنباً إلى جنب مع الاتجاهات الفكرية الأخرى ، لأنه يكمل الصورة الفكرية للمجتمع ، ويحفز المستنيرين للرد على مايرونه غير صالح للحياة المعاصرة ، وبذلك تستقيم المسيرة الفكرية ، وتتضح تعاليم الإسلام للمسلم وغير المسلم .

وبناء على هذا ينبغى على المؤسسات الدينية – وكذلك العلماء المتخصصين بجهدهم الفردى – أن يوضحوا لهؤلاء أن استعمال القوة لفرض الآراء على الآخرين مرفوض بنص القرآن

الكريم ، وأن تعدد الآراء مقبول فى ساحة الفكر الإسلامى ، وعلى المسلمين أن يختاروا منها ما تطمئن إليه قلوبهم ، كما قال رسول الله ﷺ : " **استفت قلبك وإن أفتوك ، وإن أفتوك** " [١٥]

إن سماحة الإسلام فى ساحة الحوار الفكرى ، هى الدعامة الأساسية فى التعامل مع الآخرين ، حتى ولو كانوا لا يدينون بالإسلام ، وهى المنهج الأمثل فى مجال الدعوة إلى الله ، للوصول إلى الهدف الأسمى ، ألا وهو توضيح تعاليم الإسلام بالصورة التى يقبلها العقل ، ولا تصطدم مع متطلبات الحياة الضرورية ، وذلك هو التنوير الذى هو ركن أساسى فى الإسلام منذ بدء الدعوة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

١٥) أخبرنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن الزبير أبى عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مِكْرَز الفهرى عن وابصة بن مَعْبَد الأسَدِى أن رسول الله ﷺ قال لوابصة : " جئت تسأل عن البر والإثم " قال : قلت : نعم. قال : فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال : " استفت نفسك استفت قلبك يا وابصة – ثلاثا – البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك " [الدارمى ٢٥٨٨ البيوع باب ٢]

obeikandl.com